مقدمة المؤلف

إن انتظام المعاني الجميلة في القرآن الكريم وتساوقها ضمن تصاميم تعبيريَّة تتَّسم بالعذوبة والحيويّة، والرَّشاقة، يشير بكلِّ جلاءٍ إلى حكمةٍ ربانيةٍ بديعةٍ؛ ذلك أنَّ الإنسان المخاطَب بالقرآنِ، وبكلِّ بيانٍ، تستهويه الرِّقة، وتُبهج أحاسيسه أشكالُ التناغم في التعبير، والتصوير، والإيقاع، بالقَدْر نفسه الذي يرتاح به عقلُه إلى الدقة، والجِدَّة، والمتانة، والتوافق التصميمي في الأفكار والمضامين.. وهذا الأسلوب القرآني الذي يقنع العقلَ كما يمتع الإحساسَ ويلطِّف الشعور، ويسوق الحقائق الكبرى الغيبيَّة، كما ينقل الصور الكونية والحياتية المرئية، بلغة الجمال الأدبي الجذّاب. وينشئ في العقل اليقينَ الفكري، ويملؤه معرفةً، كما يثير في الشعور شتى الأحاسيس الإيجابية الملوّنة: إعجاباً، وجذلاً، ودهشةً، وتطلُّعاً، واستشرافاً، ورغبةً، ورجاءً، وخوفاً، وندماً، وجمالاً، واستحساناً، وروعةً.. دون أن يطغى امتداد الفكرِ على خضرةِ الشعور وحيويته وخصبه، أو ينفصل الحسّ وينفلت من شبكة القناعات الإيمانية والفكرية والأخلاقية الرشيدة.. هذا الأسلوب القرآني المبدع؛ مضافاً إليه الأسلوب النبوي الجميل، يضع أمامنا حقيقتين لا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نغفل عنهما:

أولاهما: أنَّ البحث عن اللذّة الجمالية مطلبٌ إنساني واقعي لا يجوز تجاهله إسلامياً.

ثانيتهما: أنَّ نقلَ المضامين والأفكار الصحيحة والرؤى السليمة والممارسات المرغوبة؛ لا بدَّ أن يتخذ شكلاً جميلاً مشوّقاً؛ فالموعظة لا بدَّ أن تكون حسنةً، وكذلك الجدال، والبيانُ لا بدَّ أن يكون بليغاً، وكذلك القصة، وسائر أشكال الخطاب والإعلام، ينبغي أن تكتسيَ بصبغة الجمال لتغدوَ أكثرَ تأثيراً في المخاطَب والمتلقّي.

ولا مناص بعدَ التسليم بهاتين الحقيقتين من التفكير الجاد بتوسيع دائرة اهتمامنا بالأدب الإسلاميّ، وجعلها أكثر إضاءةً وإشراقاً، وإعادة حكم الاشتغال به إلى موقعه الأصوليّ الصحيح في سلَّم الأولويات، ألا وهو الوجوب الكفائيّ المحتّم، وتجاوز النظرة التقليدية التي تصنِّف العمل الأدبي ضمن سلَّم الكماليات الثقافية، ولا تعتمده كأسلوبٍ جادٍّ، ذي بهاء، من أساليب التوصيل الرساليّ.. والتحقق بالنظرة القرآنية التي ترى الحقيقة بعدسة الجمال، ولا تقدّمها إلى المستقبلِ إلاّ مغلَّلةً بغلالته، مُزيَّنةً بنقوشه وألوانه.

إنَّ التفاتةً أكثر جدية إلى الفنون الأدبية، وإنتاجاً أفضل لأشكالها ومضامينها؛ سيعيدان للأدب دوره الرياديّ في صقل الحاسة الجمالية لدى المسلم، وجعلها أكثرَ شفافيةً وقدرةً

على تذوق جمالية القرآن وكلّ المصادر الإسلامية الأصيلة، وسيشدّان صلَته بها.. وفي زيادة تبصُّره للواقع الفكري والنفسي والاجتماعي، المحلي والعالمي، الغائب السالف، والحاضر المشهود، والمستقبل المُستشرَف؛ بما يمنحه الأدبُ من رؤيةٍ تكون في كثير من الأحيان، أكثر سعةً وعمقاً ودقةً واستيعاباً وشمولاً وكمالاً؛ من رؤية الإنسان المطلق العاديّ، المنهمك في تلبية دوافعه، والمنشغل بواقعه الأكثر كثافةً وجزئيةً أو عموميةً؛ من واقع الأديب.. وبذلك يضيف إلى العقل المسلم بُنًى وأطراً فكريةً وشعوريةً مستحدثة؛ تزيده أصالةً وانفتاحاً وثراءً وتوغلاً في عالم الثقة المطلقة بما يحمله من رسالةٍ، وحبوراً بما هو عليه من قناعاتٍ؛ تزيدها الإبداعات الأدبية توقُّداً أو تجذُّراً. وجرأةً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبليغ المعطيات الإيمانية للعالم المعاصر، وتنزيلاً أفضل وأحكم لنصوص الكتاب والسنة على الواقع المعايَش.

ومع كل هذه الموجبات والفضائل التي يمنحها الإبداع الأدبي للشخصية المسلمة؛ فإنه يقي هذه الشخصية من كلِّ النزاعات السلبية التي ثارت في أعماقها - بأشكالٍ ومستوياتٍ مختلفة وتحت مؤثرات بيئيّةٍ ضاغطة - حين لجأت إلى الأدب الغربي أو المتغرب لتشبع حاجاتها الجمالية والعاطفية والخيالية والاجتماعية؛ بغياب الأدب الإسلامي الرصين الأصيل؛ والمستجيب في الوقت ذاته لإيقاع العصر، وهمومه، ومشاكله وأسئلته المتكاثرة.

ومما يبشِّر بالخير ويدعو إلى التفاؤل والمسرَّة: ظهور أعمال أدبية، شعرية وقصصية وروائية ومسرحية، ذات مستويات جيدة، ومتابعة القراء لها بشغف واهتمام، وفتح بعض المجلات الإسلامية أبوابها لنشر ما يناسب أحجامها من إبداعاتٍ أدبية، وما يُعقد من ندوات ومؤتمرات تؤكد ضرورةَ الأدب الإسلامي وتبلور أبعاده، وعوالمه، وفنونه، وميزاته.

ولما كان النقد الأدبي هو المنظّر والمقوّم والمؤسِّس لمرتكزات هذا الأدب وأعمدته الأساسية؛ فإن دفع هذا النقد نحو مزيد من التأصُّل، والمنهجية، وصفاء الرؤية، والتجرد من الرؤى الغربية المكدَّرة بضباب الأهواء؛ أو المرتهنة إلى إسار التقليد غير الواعي؛ أو الملفقة بالبدع التنظيرية والنقدية المستوردة؛ لهو من المهام الأساسية والملحة للنقد الأدبي الذي يستمد ثوابتَه الإيمانية والثقافية من الكتاب والسنة.

وقد شغلني هذا التوجه النقدي لسنوات عديدة من عمري.. فكانت هذه السلسلة النقدية؛ التي أرجو أن ينظرَ إليها الناقدون والمهتمون بالأدب كإنتاجٍ بشري اجتهادي.. فإن رأوا فيه خيراً وصواباً دعوا لصاحبه بالخير، وإن عثروا فيه على خطأ أو زللٍ استغفروا له، وصحَّحوه.. وآخرُ دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

* * *

مدخل قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام

بقلم: حكمت صالح

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد الذي شرَّفه الله بتلقِّي الوحي الإلهيّ المعجِز؛ ليخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ..

وبعد:

على مدى خمسةَ عشرَ قرناً من الزمان، وإلى ما شاء الله تعالى، يكتشف المسلمون كلَّ يوم جديداً، ومن خلال تأملاتهم في كتاب الله العزيز؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذا التجدُّد في العطاء المواكب لتقدّم الإنسان في مضمار المدنيَّة والحضارة؛ والمُسايرُ لنموِّ الذهن البشريّ وتطوُّر فكره في معارج العلم ومدارج الحياة، هذا التجدُّد هو أحد أوجه الإعجاز القرآنيّ الكثيرة.

* * *

والدراسة التي بين أيدينا هي سياحة جماليَّة في مُنتجَع الإعجاز القرآنيّ. وهي تتطلَّب من الباحث استعداداتٍ متنوِّعةً وإمكاناتٍ بعيدةَ الغَور في مساحات ثقافيّة وعلميّة شتّى.

فدراسة كهذه بحاجة؛ أولاً؛ إلى إلمام بكتاب الله تبارك وتعالى.. واستيعاب معانيه.. واحتواء عطاءاته الثرّة - أو محاولة ذلك -، سواء في مَجالي اللُّغة فصاحةً وبلاغةً وبياناً، أم في حقول التفسير عقيدةً وشريعةً وأحكاماً وتوجيهاتٍ، أم في الأوامر والنواهي المتعلّقة بالعبادات والمعاملات.

ودراسة كهذه بحاجة إلى إحاطة بفنون الأدب وأجناسه، والفنّ القصصيّ بالذات، من حيث القدرةُ على تفحُّص مواطن القوّة ومواضع الضعف فيه، ثمَّ مناقشة الرأي القائل بأنَّ فنّ القصَّة القصيرة وافدٌ، وقد استورده الأدبُ العربيّ المعاصرُ من الغرب.. وعليه فإنَّ البحثَ في هذا المضمار بحاجةٍ إلى متابعاتِ تطوُّرِ هذا الفنّ في الآداب العالميّة، فضلاً عن ضرورة التعرُّف على المذاهب والمدارس الأدبيَّة.

ودراسة كهذه بحاجة أيضاً إلى امتلاك رؤيةٍ نقديَّةٍ ذكيَّةٍ وفكرٍ تنظيريّ، فبالأولى يمكن استبطانُ النصّ واكتشافُ العلاقات الفَنيَّة فيه؛ والجمالية بين عناصره. وبالثاني تُستخلَص القواعدُ وتُقنَّنُ الأحكامُ النقديَّة في إطارِ التنظيرِ الأدبيّ. وعليه، فمن البَدَهِيّ أن يمتلك الباحث من الأدوات الفنِّيَّة والمصطلحات النقديَّة ما يمكِّنه من التعبير عن أفكاره ورؤاه.. وتسجيلها.. وتوصيلها إلى المتلقِّي.

الكثير من هذه المطالب وغيرها لها حضورٌ - كما سيرى القارئ بأمِّ عينيه - في هذه الدراسة الجادَّة.. وسيلاحظ القارئ أيضاً - أنَّ للباحث مخيّلةً ومَلَكةَ تصوُّرٍ تنبثق عنهما التفاتات ذكيَّة.. وملحوظات.. واستكشافات تمكّنه من الربط بين العناصر الفنِّيَّة الخفيَّة، وتأخذ بيده في الكشف عن طبيعة العوامل الفاعلة في النصّ.

* * *

وبالرغم من جسامة التعامل مع (النصّ) القرآنيّ في مضمار الدرسِ فإنَّ مدارسته - في الوقت ذاته - ضربٌ من ضروب العبادة والدعوةِ إلى الله تبارك وتعالى.. يتقرَّب بها الباحثُ إلى ربِّه؛ مبتغياً إليه الوسيلة؛ طالما كانت هدفاً رئيساً من أهداف الباحث.

ولمّا كان العقلُ البشريُّ في عموم قُدراته يفتقر إلى العصمة؛ فقد أُنيطت الأفعالُ بالمقاصد والأعمالُ بالنوايا. ومن هنا كان للمجتهد أجران إن أصاب؛ وأجرٌ إن أخطأ.. وتبقى الكتابةُ عن (النصّ) القرآنيّ مَهَمَّةً صعبةً وجسيمةً؛ لِما يعترضُها من خطورة؛ وما يترتَّب عليها من مسؤوليَّة.

ومع هذا وذاك فقد حظيت سورةُ يوسف باهتمام عامَّة المسلمين وخاصَّة علمائهم؛ لِمَا لها من خصوصيّات. فقد عُقد

(مؤتمرٌ خاصٌّ بسورة يوسف) في سنةٍ سابقة، وطُبعت أعمالُه في مجلَّدٍ ضخم. (ولكاتب هذه المقدمة كتاب مخطوط بعنوان: إعراب سورة يوسف).

أمّا ما لاحظتُه على الصعيد الشعبيّ؛ فإنَّ الناس يُكثرون من حفظها.. ويستأنسون بتلاوتها، أو الاستماعِ والإنصات إليها في مناسبات متعارضة من حيث الحزنُ والفرحُ..

لقد وصف الله تبارك قصَّة يوسف بأنَّها: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ لِمَا فيها من عِبَر ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبابِ﴾. وكما أنَّ فيها تعزيزاً لمعنويّات رسول الله ﷺ بنُصرة الرُّسل؛ والانتقام من القوم المجرمين ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فكذلك فيها حثٌّ للمؤمنين على السير في الأرض، والاعتبار بمصائر الأمم السالفة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

إنَّ قصَّة يوسف عليه السلام بالرغم من أنَّها متنزعَة من الحياة اليوميَّة في الكشف عن العلاقات الاجتماعيَّة - فإنَّها تؤكِّد ضرورةَ التأمُّل في طبيعة الحضارات البائدة.. في عوامل الرقيّ ودواعي السقوط؛ وبالتالي استنباط الحتميَّة التاريخيَّة التي تقوم على أساس أنَّ ديمومةَ البقاء مرهونةٌ

بالصلاح والتقوى.. هذه الحقيقة التاريخيَّة لا يتحقَّق وعيُها والإحاطة بها إلا بإعمال العقل البشريّ بدءاً وانتهاءً، تؤكِّد مقدِّمة السورة على هذا الجانب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. كما تؤكِّد خاتمتُها عليه ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾. وهكذا تؤدِّي القصَّة فاعليَّتها - فيما تؤدِّي - بإحالة (الغفلة) (انتباهةً ذكيَّة وفعلاً واعياً)، وهذا ما يُفهَمُ من مقارنة المقدِّمة: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ بالنتيجة: ﴿عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبابِ﴾.

مثل هذا الربط بين السوابق واللَّواحق؛ أو بين المقدِّمات والنتائج يوثِّق المغزى القصصيّ الهادف.. وستجد في هذه الدراسة تغطيةً فَنِّيَّةً لِمَا بين البدء والختام.

إن استعراضاً متفحِّصاً للفهرس يغني عن قول الكثير عن هذه الدراسة المتأمِّلة.. التي تتحدَّث بلغة الفنّ القصصيّ المعاصر، في وقت تستلهم الرؤيةَ الإسلاميّة في تقنيتها وجماليّاتها.

* * *

وبعد، فهذه الدراسة هي حلقة من سلسلة حلقات في فروع الأدب الإسلاميّ أنجزها الأستاذ (محمد رشدي عبيد)، الكاتب الشاب الذي يقف قبالة طموحات كبيرة في خدمة

الأدب الإسلاميّ الهادف، ونتوسَّم فيه إمكاناتٍ فكريةً تبشِّر بمستقبلٍ خصب إن شاء الله تعالى، وتعدنا بعمقٍ جادٍّ في التفسير والتحليل والربط..

لقد عرفتُ في نتاجاته الرؤية الثاقبة.. ولمست من سلوكه نقاء الطويّة.. وهو يجمع بين طموح طالبِ العلمِ وتواضعِ العلماء. وفي الوقت الذي هو فيه متفتِّحٌ للجديد ومُسايرٌ للمعاصرة؛ فإنَّه لا يتقبَّل منهما إلا المؤتلِف مع الأصالة، أو - على الأقلّ - ما لم يتقاطع معها.. والأصالة تعني ما تعني من صدق العقيدة.. وعمق الفكر.. وتفهُّم التراث - في مقابل الذكاء الفنِّيّ.. والقدرة على الابتكار وترويض المفردة القاموسيَّة، واستعارة معطيات العلم الحديث والتكنولوجيا، وتوظيف كلّ ذلك لأغراض النقد الأدبيّ..

نودِّع القارئ الكريم ليتلمّس - ما قلناه في هذه المقدِّمة - بيده؛ وليُعايِنَها بنفسه، متمنِّين للمؤلِّف وللقارئ اللّقاء على مائدة الإيمان إن شاء الله.

وعلى الله قصدُ السبيلِ.

حكمت صالح - الموصل

تمهيد

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٦].

* * *

(إذا قرأتَ الرواية الزائفة أحسست في نفسك بأشياء بدأت تَسْفلُ، وإذا قرأتَ الرواية الصحيحة أدركت في نفسك أشياء بدأت تعلو. تنتهي الأولى فيك بأثرها السيئ، وتبدأ الثانية فيك بأثرها الطَّيِّب، وهذا عندي هو فرق ما بين فنّ القصة وفنّ التلفيق القصصيّ) (الرافعي) وحي القلم ٢٢٨/٣.

* * *

(يُخيَّل إليَّ أن الإنسان قاصٌّ بطبعه. فما تخيلت جماعة البشر مجتمعين إلاّ رأيت أحدَهم يقصُّ، والباقين مصغين).

(السحّار) بحث عن الرواية ص ١٩

* * *